السَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ لِلشَّيْطَانِ فُرُوعًا وَأَبْنَاءً، كَمَا لِآدَمَ، مِنْ قَوْلِهِ: «بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ».

الإِشَارَةُ

فِي قَوْلِهِ: «وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ» حَيْثُ ذَكَرَهَا بِالْجِنْسِ، وَلَمْ يَذْكُرْهَا بِالنَّوْعِ تُفِيدُ وُجُوبَ التَّوَقِّي وَالْاِحْتِرَازِ مِنْ كُلِّ مُشْتَبَهٍ، فَضْلًا عَلَى الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ بِالْمَنْعِ، لِئَلَّا يَكُونَ دَخْلًا تَحْتَ الْجِنْسِ، وَفِي تَعْبِيرِهِ عَنِ الْأَكْلِ بِالْقُرْبِ كِفَايَةٌ، فَمَنْ حَامَ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ.

لِسَانُ الرُّوحِ

يَقُولُ إِنَّ آدَمَ وَإِنْ أَسَاءَ فِي دَارِ الْإِحْسَانِ فَقَدْ أَحْسَنَ فِي دَارِ الْإِسَاءَةِ، لِيَعْلَمَ أَبْنَاؤُهُ احْتِمَالَ وُقُوعِ الشَّيْءِ فِي ضِدِّهِ، حَتَّى لَا يَأْمَنَ أَحَدُهُمْ مَعَ الْأَمْنِ، وَلَا يَيْأَسَ مَعَ الْخِذْلَانِ.

التَّفْسِيرُ

ثُمَّ بَعْدَ تَوْجِيهِ الْخِطَابِ لِعُمُومِ الْمُكَلَّفِينَ لَوَّنَ الْعِبَارَةَ تَعَالَى وَاسْتَلْفَتَ الْخِطَابَ لِطَائِفَةٍ مَخْصُوصَةٍ، كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مُوَاصَلَةٌ،

تَحْرِيكًا لِحَبْلِ الْمَوَدَّةِ، فَعَسَى أَنْ يَلْتَحِقَ الْفَرْعُ بِأَصْلِهِ وَالْعَبْدُ بِرَبِّهِ، ثُمَّ أَنَّ تَخْصِيصَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالذِّكْرِ هُوَ الَّذِي وَضَّحَ حُجَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْعَالَمِينَ مِنْ أَنَّ كِتَابَهُ مِنَ اللَّهِ لَا مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، كَمَا يَقُولُ الْكَافِرُونَ، فَلَوْ كَانَ كَمَا يَزْعُمُونَ لَمَا حَاجَّ أَهْلَ الْكِتَابِ فِي كِتَابِهِمُ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَالْعَالَمُ يَشْهَدُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا أُمِّيٌّ فِي الْعَرَبِيَّةِ فَضْلًا عَنِ الْعِبْرَانِيَّةِ، فَكَيْفَ حَتَّى يُهَدِّدَهُمْ بِمَا فِي التَّوْرَاةِ بِقَوْلِهِ: قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، وَمَعَ كَوْنِهِ خِطَابًا لَهُمْ فَحَظُّنَا مِنْهُ غَيْرُ مَعْدُومٍ، فَهِيَ حِكَايَةٌ لَنَا، وَتَقَدَّمَ أَنَّ الْحِكَايَةَ لَيْسَتْ هِيَ لِمُجَرَّدِ التَّفَكُّهِ، إِنَّمَا هِيَ لِنَأْخُذَ مِنْهَا أَحْكَامًا عَدِيدَةً يَعْقِلُهَا الْعَالِمُونَ، وَيَأْخُذُهَا الْمُسْتَنْبِطُونَ، وَزِيَادَةً إِنْ لَمْ يَشْمَلْنَا النِّدَاءُ مِنْ قَوْلِهِ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَشْمَلْنَا الضَّمِيرُ مِنْ قَوْلِهِ: أُذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ، وَمَنِ الَّذِي لَمْ تَشْمَلْهُ نِعْمَتُهُ الَّتِي مِنْ أَعْظَمِهَا نِعْمَةُ الْإِيجَادِ، ثُمَّ نِعْمَةُ الْإِمْدَادِ، ثُمَّ نِعْمَةُ الِاسْتِعْدَادِ، ثُمَّ نِعْمَةُ التَّعَرُّفِ الَّذِي تَعَرَّفَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِعَبْدِهِ بِهَا، كُلٌّ عَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِ،

قَالَ تَعَالَى: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ» هُوَ سَيِّدُنَا يَعْقُوبُ، وَمَعْنَاهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ صَفْوَةُ اللَّهِ، وَقِيلَ عَبْدُ اللَّهِ «اذْكُرُوا» مِنَ التَّذَكُّرِ، أَيِ اسْتَحْضِرُوا «نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ» بِإِدْرَاكِكُمْ زَمَنَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِعْثَتِهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، لِيُجَدِّدَ لَكُمْ مَا انْدَرَسَ مِنَ الدِّينِ، وَيُمِدَّكُمْ بِسُنَنِ الْأَوَّلِينَ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَفُوتَكُمْ هَذِهِ النِّعْمَةُ «وَأَوْفُوا بِعَهْدِي» الَّذِي عَاهَدْتُمُونِي عَلَيْهِ، إِذْ بَعَثْتُ فِيكُمْ رَسُولًا لِتَنْصُرُونَهُ، فَهَا هُوَ قَدْ حَلَّ أَوَانُهُ، وَجَاءَ أَبَانُهُ، فَآمِنُوا بِهِ وَبِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ مِنَ اللَّهِ «أُوفِ بِعَهْدِكُمْ» عِنْدِي بِمَا نَدَّخِرُهُ لَكُمْ مِنَ الثَّوَابِ «وَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ» وَالرُّهْبَانِيَّةُ هِيَ أَعْلَى دَرَجَةِ الْخَائِفِينَ، أَيْ خَافُونِي وَلَا تَخَافُوا غَيْرِي، فَإِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ نَقَضْتُمْ عَهْدَهُ «وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ» عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ الْقُرْآنُ «مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ» مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَسَائِرِ الصُّحُفِ السَّمَاوِيَّةِ، مِنْ جِهَةِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْقِصَصِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَهُوَ يَذْكُرُ وَيُقَرِّرُ الْكَثِيرَ مِمَّا قَرَّرَتْهُ الْكُتُبُ السَّالِفَةُ، وَلَوْ كَانَ الْقُرْآنُ عَلَى خِلَافِ

ذَلِكَ لَقَالَتِ الْيَهُودُ إِنَّهُ مُخَالِفٌ لِكِتَابِنَا «وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ»، أَيْ كُفْرُكُمْ أَشَدُّ ضَرَرًا عَلَيْكُمْ وَعَلَى الْعَالَمِينَ مِنْ جِهَةِ مَا سَبَقَ لَكُمْ مِنْ دَلَائِلِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ وَصِفَاتِهِ فِي التَّوْرَاةِ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا ذَرِيعَةً مِنْ جِهَةِ التَّأَسِّي بِكُمْ لِنِسْبَتِكُمْ لِلْكِتَابِ، فَيَكُونُ جُرْمُكُمْ أَعْظَمَ، وَلَمَّا كَانَ تَعَالَى عَالِمًا مِنْ أَنَّ أَحْبَارَ الْيَهُودِ أَسْهَلُ مِنْ جِهَةِ الْمَيْلِ إِلَى الدُّنْيَا، فَقَدْ يَسْتَبْدِلُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، جَاءَ بِمَا فِيهِ تَحْذِيرٌ، فَقَالَ: «وَلَا تَشْتَرُوا» أَيْ تَسْتَبْدِلُوا «بِآيَاتِي» الَّتِي جَاءَتْكُمْ فِي بَيَانِ صِفَةِ مُحَمَّدٍ بِأَنْ تُغَيِّرُوهَا وَتُحَرِّفُوا الْكِتَابَ لِأَجْلِ «ثَمَنًا قَلِيلًا»، فَكُلُّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا قَلِيلٌ بِإِضَافَتِهِ لِجَانِبِ الْحَقِّ «وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ» أَيْ لَا تَتَّقُونَ غَيْرِي فِي مِثْلِ ذَلِكَ، وَإِنْ أَكْرَهَكُمْ عَلَى تَحْرِيفِ الْكِتَابِ وَتَغْيِيرِ الصَّوَابِ. أَلَا تَرَى أَنَّ هَذَا الْخِطَابَ وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ التَّحْذِيرِ يَشْمَلُ كُلَّ مُدَاهِنٍ عَالِمٍ بِالْكِتَابِ، تَوْرَاةً كَانَ أَوْ إِنْجِيلًا، وَهُوَ فِي عَصْرِنَا بِالْقُرْآنِ أَجْمَلُ وَأَحْرَى، فَلْيَحْذَرْ عُلَمَاءُ الدِّينِ مِنَ الرُّخَصِ الْوَاهِيَةِ، وَالْمُدَاهَنَةِ فِي دِينِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ لَهُمْ: «وَلَا تَلْبِسُوا» أَيْ تَسْتُرُوا «الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ» بِأَنْ تَخْلِطُوهُ

حَتَّى يَشْتَبِهَ عَلَى مَنْ لَا خِبْرَةَ لَهُ « **وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ** » أَيْ تَسْكُتُوا عَنْهُ « **وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** » أَنَّهُ الْحَقُّ ، وَالْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ . قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : مَنْ كَتَمَ عِلْمًا يَعْرِفُهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلِجَامٍ مِنَ النَّارِ « **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ** » فِي أَوْقَاتِهَا وَبِشُرُوطِهَا ، فَإِنَّهَا عِمَادُ الدِّينِ يَا مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالْقِيَامِ هُوَ مُجَرَّدَ الْإِتْيَانِ بِصُورَتِهَا وَإِنْ كَانَتْ خَالِيَةً مِنَ الْحُضُورِ ، وَوُجُودِ سِرِّ الْإِخْلَاصِ فِيهَا ، فَقَدْ تَكُونُ صُورَةً بِلَا مَعْنًى فَهِيَ إِذَنْ سَاقِطَةٌ غَيْرُ قَائِمَةٍ . قَالَ فِي الْحِكَمِ الْأَعْمَالُ صُوَرٌ قَائِمَةٌ ، وَأَرْوَاحُهَا وُجُودُ سِرِّ الْإِخْلَاصِ فِيهَا ، فَهَذِهِ هِيَ إِقَامَتُهَا ، « **وَآتُوا الزَّكَاةَ** » يَا أَهْلَ الْأَمْوَالِ فِيمَا وَجَبَتْ فِيهِ ، فَإِنَّهَا مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ « **وَارْكَعُوا** » وَاسْجُدُوا وَكُونُوا « **مَعَ الرَّاكِعِينَ** » أَيْ مَعَ جُمْلَةِ الْمُسْلِمِينَ ، زِيَادَةً عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ فِي التَّمَامِ ، وَلَا يَخْفَى مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْخِطَابِ الشَّامِلِ لِكُلِّ مُتَظَاهِرٍ بِالْخَيْرِ مُتَكَاسِلٍ عَنْ فِعْلِهِ ، لَا يَأْتِي بِالصَّلَاةِ عَلَى وَجْهِهَا ، وَإِنْ أَتَى بِهَا لَا فِي أَوْقَاتِهَا ، وَإِنْ كَانَتْ فِي أَوْقَاتِهَا جَاءَتْ بِالْإِنْفِرَادِ غَالِبًا ، وَقَدْ عَمَّتْ

هَذِهِ البَلِيَّةُ فِي أَكْثَرِ المُعَلِّمِينَ ، يَأْمُرُونَ بِالْخَيْرِ وَلَا يَأْتَمِرُونَ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَلَا يَنْتَهُونَ ، فَلَاجَرَمَ يَتَنَاوَلُهُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى « **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ** » أَيْ بِفِعْلِ الْخَيْرِ مُطْلَقًا « **وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ** » لَا تَأْمُرُونَهَا بِمِثْلِ ذَلِكَ « **وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ** » وَتَعْرِفُونَ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ أَلَيْسَ هَذَا مِنَ النِّفَاقِ وَالْخِذْلَانِ الْبَيِّنِ « **أَفَلَا تَعْقِلُونَ** » ، أَيْ أَلَيْسَ لَكُمْ عُقُولٌ تُمَيِّزُونَ بِهَا وَبَصَائِرُ تَعْتَمِدُونَ عَلَيْهَا ، حَتَّى بَلَغَتْ بِكُمْ شَقْوَتُكُمْ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ ، تَأْمُرُونَ وَلَا تَأْتَمِرُونَ ، ثُمَّ إِنْ أَرَدْتُمُ الْخَلَاصَ فَاتَّقُوا اللَّهَ « **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ** » عَلَى قَوْلِ الْحَقِّ بِأَنْ لَا تَكْتُمُوهُ مَهْمَا عَرَفْتُمُوهُ « **وَالصَّلَاةِ** » إِنَّمَا تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ « **وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ** » أَيْ ثَقِيلَةٌ عَلَى عُمُومِ النَّاسِ « **إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ** » فَإِنَّهَا قُرَّةُ أَعْيُنِهِمْ . قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » « **الَّذِينَ يَظُنُّونَ** » فِي صَلَاتِهِمْ « **أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ** » بِمَا اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِمْ مِنَ الْهَيْبَةِ فِي حَالِ وُقُوفِهِمْ مَعَ اللَّهِ ، وَإِلَيْهِمُ الْإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَالَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » « **وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ**

رَاجِعُونَ » بَعْدَ الْمَمَاتِ، فَيَجْزِيهِمْ بِمَا فَعَلُوهُ، وَلِهَذَا خَفَّتْ عَنْهُمُ الصَّلَاةُ فِي جَانِبِ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْمُصَلِّينَ، وَكَانَتْ ثَقِيلَةً عَلَى مَنْ لَمْ يَرْجُ ثَوَابًا، وَلَا يَخْشَى عِقَابًا.

الإِسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) إِلَى قَوْلِهِ (رَاجِعُونَ) أَرْبَعَةَ عَشَرَ حُكْمًا:

الأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْخِطَابَ إِذَا كَانَ مِنَ الْإِنْسَانِ فَالْأَحْسَنُ أَنْ يَخُصَّ فِيهِ بِالذِّكْرِ مَنْ يَسْتَحِقُّ الذِّكْرَ، مِنْ قَوْلِهِ: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) حَيْثُ خَصَّصَهُمْ تَعَالَى بِالذِّكْرِ فِي صَدْرِ الْكِتَابِ.

الثَّانِي: عَلِمْنَا مِنْ حُسْنِ أُسْلُوبِ الدَّعْوَةِ أَنْ تُذَكِّرَ الْمُخَاطَبَ بِمَا سَبَقَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مِنَ الْوِدَادِ، مِنْ قَوْلِهِ: (أُذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ).

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِنِعْمَةٍ أَنْ لَا يَجْحَدَهَا، مِنْ قَوْلِهِ أَيْضًا: (أُذْكُرُوا نِعْمَتِيَ)

الرَّابِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّهُ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُوفِيَ اللَّهُ مَعَهُ بِعَهْدِهِ يُوفِي هُوَ بِعَهْدِهِ مَعَ اللَّهِ، مِنْ قَوْلِهِ: أَوفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ.

الخَامِسُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْوَعْظَ أَحْسَنُهُ أَنْ يَكُونَ مُتَرَكِّبًا مِنْ تَرْغِيبٍ وَتَرْهِيبٍ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾، بَعْدَ مَا ذَكَرَ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ.

السَّادِسُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ مُصَدِّقًا لِلتَّوْرَاةِ طِبْقَ خَبَرِهَا، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾.

السَّابِعُ : عَلِمْنَا كَيْفَمَا كَانَ عَلَى أَنْ يَتَحَاشَا بِهِ الْإِنْسَانُ عَنْ حُكْمٍ مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ، فَهُوَ قَلِيلٌ وَفَاعِلُهُ مَمْقُوتٌ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

الثَّامِنُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ التَّدْلِيسَ فِي دِينِ اللَّهِ مُمْتَنِعٌ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾.

التَّاسِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ كِتْمَانَ الْحَقِّ مَعَ الْعِلْمِ بِهِ أَنَّهُ حَقٌّ مُحَرَّمٌ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

العَاشِرُ : عَلِمْنَا بِمَطْلُوبِيَّةِ الْإِتْيَانِ بِالصَّلَاةِ جَمَاعَةً، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ارْكَعُوا

مَعَ الرَّاكِعِينَ) وَإِلَّا لَاكْتَفَى عَنْ ذِكْرِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ بِمَا سَبَقَ مِنْ قَوْلِهِ: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ).

الْحَادِي عَشَرَ: عُلِمْنَا بِشَنَاعَةِ مَنْ يَأْمُرُ النَّاسَ وَلَا يَأْتَمِرُ، مِنْ قَوْلِهِ: (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ).

الثَّانِي عَشَرَ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الصَّبْرَ وَالصَّلَاةَ مُعِينَانِ عَلَى الْقِيَامِ بِحُدُودِ اللَّهِ مِنْ قَوْلِهِ: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ).

الثَّالِثُ عَشَرَ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الصَّلَاةَ ثَقِيلَةٌ عَلَى الْعُمُومِ، بِقَدْرِ مَا خَفَّتْ عَلَى الْخُصُوصِ، مِنْ قَوْلِهِ: (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ).

الرَّابِعُ عَشَرَ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْخَاشِعِينَ فِي صَلَاتِهِمْ هُمُ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ قَادِمُونَ عَلَى اللَّهِ فِيهَا، وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَهَذَا الْمُرَادُ بِالظَّنِّ، وَأَمَّا لَوْ رَجَعَ إِلَى الْآخِرَةِ لَمَا صَحَّ إِيمَانًا.

الإِشَارَةُ

فِي تَوَجُّهِ الْخِطَابِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ يَتَنَاوَلُ كُلَّ نَفْسٍ أَمَّارَةٍ، وَقَدْ يَشْمَلُ اللَّوَّامَةَ أَحْيَانًا، وَوَجْهُ الْجَمْعِ بَيْنَ الصِّنْفَيْنِ نَقْضُ الْعَهْدِ فِي

كُلٍّ مِنْهُمَا وَكُفْرَانِ النِّعَمِ وَخبثُ الطَّوِيَّةِ ، وَبِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ أَرَادَ تَعَالَى أَنْ يُنَبِّهَ النُّفُوسَ الْمُدْبِرَةَ ، وَيَسْتَلْفِتَهَا لِبَابِهِ ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ يَا مَعَاشِرَ النُّفُوسِ أُذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، بِالْإِضَافَةِ لِنُفُوسِ الْبَهَائِمِ وَالْجَمَادَاتِ ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِيَ الَّذِي عَاهَدْتُمُونِي فِي عَالَمِ الْأَرْوَاحِ ، إِذْ قُلْتُمْ بَلَى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ فِي عَالَمِ الْأَشْبَاحِ بِأَنْ نَكُونَ مِنْكُمْ قَرِيبٌ ، وَلَكُمْ مُجِيبٌ ، وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ، وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مِنَ الْمَعَارِفِ الْغَيْبِيَّةِ وَالْأَسْرَارِ الْقُدْسِيَّةِ عَلَى عَبْدِنَا ، وَهُوَ الْقَلْبُ الْخَالِصُ لِلَّهِ ، الْفَارِغُ مِمَّا سِوَاهُ ، الْمُشَارُ لَهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ : لَا يَسَعُنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِيَ الْمُؤْمِنِ ، فَالْإِنْسَانُ بِقَلْبِهِ لَا بِجِسْمِهِ ، وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ، لِأَنَّكُمْ عَلَى عِلْمٍ مِنْ خَصَائِصِهِ ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي الدَّالَّةِ عَلَى مَعْرِفَتِي ، أَيْ تَسْتَبْدِلُونَهَا بِأَقَلِّ الثَّمَنِ ، فَإِنَّ كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهِ قَلِيلٌ ، دُنْيَاوِيٌّ أَوْ آخِرَاوِيٌّ ، وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ الثَّابِتَ الَّذِي هُوَ اللَّهُ بِالْبَاطِلِ الزَّائِلِ الَّذِي هُوَ الْخَلْقُ ، فَإِنْ يَقَعْ نَظَرُكُمْ عَلَى الْخَلْقِ قَبْلَ وُقُوعِهِ عَلَى الْحَقِّ ، وَهَذَا هُوَ اللَّبْسُ وَكِتْمَانُ الْحَقِّ بَعْدَ

مَعْرِفَتِكُمْ إِيَّاهُ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنْ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ سِوَاهُ . وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ عَلَى إِظْهَارِ الْحَقِّ ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ ، وَاسْتَعِينُوا بِالصَّلَاةِ لِأَنَّهَا وَصْلَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ، أَيْ ثَقِيلَةٌ عَلَى كُلِّ مَحْجُوبٍ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الْعَارِفِينَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ، وَفِي مُصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ عَلَى نَعْتِ الْمُشَاهَدَةِ ، وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ أَيْ فِي صَلَاتِهِمْ رَاجِعُونَ

لِسَانُ الرُّوحِ

فِي قَوْلِهِ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ يَقُولُ أَنَّ الْحَقَّ الَّذِي هُوَ الْخَالِقُ لَا يَلْتَبِسُ بِالْبَاطِلِ ، إِنَّمَا يَلْتَبِسُ بِالْحَقِّ الْمَخْلُوقِ وَهُوَ أَيْضًا بَاطِلٌ ، فَلْيَحْذَرْ أَنْ يَكْتُمُوا الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

التَّفْسِيرُ

كُلُّ مَنْ يَتَأَمَّلُ الْخِطَابَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي صَدْرِ الْكِتَابِ بِصِفَاتِ الْمَدْحِ وَأَنْوَاعِ الثَّنَاءِ يَعْلَمُ وَيَسْتَفِيدُ كَيْفِيَّةَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَالدَّلَالَةَ عَلَيْهِ أَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِهَا ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ نَتَائِجِ قَوْلِهِ تَعَالَى : « أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » . وَأَيُّ أُسْلُوبٍ أَحْسَنُ

وَتَلَطُّفٍ أَمْكَنَ فِي الْقُلُوبِ مِنْ هَذَا الْأُسْلُوبِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى خَاطَبَ فُرُوعَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ بِوَصْفِ أُصُولِهَا احْتِرَامًا لِجَنَابِهِمْ وَتَوْفِيرًا لِكِتَابِهِمْ وَتَغْلِيبًا لِجَانِبِ الصُّلَحَاءِ عَلَى جَانِبِ الظُّلَمَاءِ ، وَتَعْلِيمًا لَنَا كَيْفِيَّةَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ ، فَطَفِقَ الْقُرْآنُ يَسْرُدُ مَا تَوَاتَرَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ ، تَارِكًا مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ النِّقَمِ بِنَقْضِهِمُ الْعُهُودَ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ . قَالَ تَعَالَى : « **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا** » أَيِ انْتَبِهُوا وَتَنَبَّهُوا وَتَذَكَّرُوا « **نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ** » الْآنَ بِإِدْرَاكِكُمْ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَقَبْلَ الْآنَ بِمَا سَيَأْتِي « **وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** » حَيْثُ جَعَلْتُ فِيكُمْ وَمِنْكُمُ النُّبُوَّةَ وَالرِّسَالَةَ وَالْمُلْكَ غَالِبًا فَلَنْ تَجِدْ طَائِفَةً انْحَصَرَ فِيهَا مَا انْحَصَرَ فِي الْإِسْرَائِيلِيِّينَ ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ هَذِهِ الْأَفْضَلِيَّةِ دُخُولُ جِنْسِ الْعَرَبِ فِي الْمَفْضُولِيَّةِ ، كَمَا يُوهِمُهُ ظَاهِرُ اللَّفْظِ ، وَغَايَةُ مَا فِيهِ أَنَّهُ جَاءَ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ » فَالْأَفْضَلِيَّةُ فِي الرِّزْقِ لَا تَسْتَلْزِمُ الْأَفْضَلِيَّةَ فِي الْعِلْمِ أَوْ فِي النَّسَبِ مَثَلًا ، فَأَفْضَلِيَّةُ

الإسرائيليين كانت من جهة حصر النبوءة فيهم غالبًا، وأفضلية العرب جاءت من حيث وقوع الخاتمة منهم، والعبرة بالخواتم. وبعدما استعطفهم واستمالهم بأنواع الملاطفة والترغيب هددهم الآن بشيء من الترهيب فقال: «**واتقوا يومًا**» يجمع له الناس، ومن نعمته أنه «**لا تجزى**» فيه «**نفس**» كيفما كانت في علو المقام «**عن نفس**» بأن تخفف عنها من العذاب «**شيئًا**» مما حل بها «**ولا يقبل منها شفاعة**» والمعنى أن الشفاعة معدومة فيمن كفر ومات على كفره، وأما المؤمن لا يحدم حظه منها «**ولا يؤخذ**» أي يقبل «**منها عدل**» أي بدل أو فداء، فكل امرئ بما كسبت يداه رهين «**ولا هم ينصرون**» أي يمنعون مما حل بهم بنصرة ناصر لهم كيفما كان.

الإستنباط

يستخرج من قوله: «يا بني إسرائيل» إلى قوله: «ينصرون» ثلاثة أحكام:

الأول: علمنا بأن الداعي إلى الله يستحسن منه أن لا يباشر

الْمَدْعُوِّينَ إِلاَّ بِأَحَبِّ الأَلْقَابِ إِلَيْهِمْ، وَأَنْ لا يَذْكُرَهُمْ أَوَّلاً إِلاَّ بِمَا يَسْتَحْسِنُونَهُ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فِي حَقِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

الثَّانِي: عَلِمْنَا أَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لا تَجْزِي فِيهِ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ كَيْفَمَا كَانَتْ.

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّهُ لا تُقْبَلُ شَفَاعَةُ الشُّفَعَاءِ فِيمَنْ كَفَرَ وَمَاتَ عَلَى كُفْرِهِ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.

الإِشَارَةُ

إِنَّ النُّفُوسَ وَإِنْ كَانَتْ خَبِيثَةً تَتَعَيَّنُ اسْتِمَالَتُهَا بِكُلِّ مُلاطَفَةٍ، فَهِيَ أُخْتُ الإِسْرَائِيلِيَّةِ، تَرَى لِنَفْسِهَا أَفْضَلِيَّةً عَلَى الْعَالَمِينَ، فَمَنْ أَرَادَ اسْتِرْشَادَهَا يَذْكُرُهَا بِأَحَبِّ الأَلْقَابِ إِلَيْهَا، وَإِلَيْهَا الإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وَلَوْ لَمْ يَطْرُقْ سَمْعَ الإِسْرَائِيلِيِّينَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُمْ فُضِّلُوا عَلَى الْعَالَمِينَ لَمَا الْتَفَتُوا إِلَيْهِ بِالْمَرَّةِ، وَالَّذِي

يُشْعِرُنَا بِأَنَّ الْخِطَابَ يَشْمَلُ كُلَّ نَفْسٍ هُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ﴾، كَيْفَمَا كَانَتْ، مُطْمَئِنَّةً أَوْ مَرْضِيَّةً عَنْ نَفْسٍ أَمَّارَةٍ أَوْ لَوَّامَةٍ شَيْئًا فَكُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا.

لِسَانُ الرُّوحِ

فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ يَقُولُ لَا تَجْزِي فِيهِ النَّفْسُ مَهْمَا كَانَتْ نَفْسًا إِلَّا إِذَا انْعَكَسَتْ رُوحًا، فَقَدْ تَكُونُ لَهَا مَكَانَةٌ فِي الْقُرْبِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي.

التَّفْسِيرُ

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ مَا اسْتَطْرَدَ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّرِّ بِبَابِ مَا هُوَ اللَّائِقُ بِمَقَامِ الِاسْتِعْطَافِ أَعْقَبَهُ بِسَرْدِ مَا أَجْمَلَهُ مِنَ النِّعَمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، وَلَا يَخْفَى مَا فِي تَفْصِيلِهَا مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى صِدْقِ الْقُرْآنِ وَنُبُوءَتِهِ فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِّيٌّ، نَشَأَ بَيْنَ الْأُمِّيِّينَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ يَهُودِ الْمَدِينَةِ مِنَ الْمَسَافَةِ مَا لَا يَخْفَى عَلَى الْعُمُومِ، وَلَمَّا حَلَّ بِهِمْ أَخَذَ فِي تَعْدِيدِ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا

عَلَى آبَائِهِمْ وَلَوَازِمِهَا وَلَا مَنْ يَقُولُ أَنَّهَا عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، لِأَنَّ الْكِتَابَ أَعْدَلُ
أَشَاهِدٍ . قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَزِيَادَةً عَلَى مَا فِي
تَفْصِيلِ النِّعَمِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةِ مَا نَسْتَفِيدُهُ مِنَ الْحِكَمِ الَّتِي يَعْجَزُ
عَنْهَا الْقَلَمُ، فَلْيَتَدَبَّرْ قَوْلَهُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَطْفًا عَلَى مَا تَقَدَّمَ:
«**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ**»، وَفِرْعَوْنُ هَذَا لَقَبٌ لِمَنْ مَلَكَ
الْعَمَالِقَةَ بِمِصْرَ، كَلَقَبِ كِسْرَى لِمَنْ مَلَكَ الْفُرْسَ، وَلَقَبِ قَيْصَرَ لِمَنْ
مَلَكَ الرُّومَ، وَخَاقَانَ لِمَنْ مَلَكَ التُّرْكَ . وَفِرْعَوْنُ هَذَا كَانَ اسْمُهُ
مُصْعَبَ بْنَ رَيَّانَ مِنْ بَقَايَا عَادٍ، وَقِيلَ كَانَ عَطَّارًا، فَتَوَصَّلَ لَهَا بِشِدَّةِ
حَذَاقَتِهِ وَدَهَائِهِ وَسِيَاسَتِهِ الْمَعْكُوسَةِ آخِرًا، حَيْثُ أَرَادَ أَنْ يُحَارِبَ
أَمْرًا سَمَاوِيًّا وَحَقًّا جَلِيًّا، وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ أَغْمَدَهُ اللَّهُ فِي رَقَبَتِهِ
قِيلَ أَنَّهُ قَتَلَ مِنْ أَطْفَالِ رَعِيَّتِهِ فِي سَنَةٍ وَاحِدَةٍ نَحْوَ التِّسْعَةِ مِائَةٍ وَتِسْعِينَ
أَلْفًا حَذَرًا أَنْ يَعِيشَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ مَنْ يَكُونُ سَبَبًا فِي خَرَابِ مُلْكِهِ
عَلَى مَا رَآهُ فِي الْمَنَامِ، وَأَخْبَرَتْ بِهِ الْكَهَنَةُ، وَلَنْ يَنْفَعَ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ
وَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ خَرَابَ مُلْكِهِ سَلَّطَهُ عَلَى الضُّعَفَاءِ مِنْ خَلْقِهِ، فَأَرَادَ

تَعَالَى أَنْ يُذَكِّرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ اسْتِنْقَاذَهُ لَهُمْ مِنْ عُتُوِّ ذَلِكَ الْبَاغِي، مُنْزِلًا الْأَبْنَاءَ مَنْزِلَةَ الْآبَاءِ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ تَذَكَّرُوا مَا وَقَعَ لَكُمْ مَعَ آلِ فِرْعَوْنَ لَمَّا كَانُوا «**يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ**» أَيْ يُذِيقُونَكُمْ أَشَدَّ الْعَذَابِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ، وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ «**يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ**» أَيِ الْأَطْفَالَ الصِّغَارَ «**وَيَسْتَحْيُونَ**» أَيْ يَتْرُكُونَ «**نِسَاءَكُمْ**» أَيِ الْبَنَاتِ مِنْ غَيْرِ ذَبْحٍ، لِأَنَّهُمْ لَا يَخْشَوْنَ ضَرَرَهُنَّ فِيمَا يَعُودُ عَلَى الْمُلْكِ بِالدَّمَارِ «**وَفِي ذَٰلِكُمْ**» الْقَتْلِ وَالْعَذَابِ «**بَلَاءٌ**» وَامْتِحَانٌ «**مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ**» وَمِنْ وُجُوهِ عَظَمَتِهِ أَنْ كَانَ الْقَتْلُ وَالْعَذَابُ مُسْتَنِدًا لِآلِ فِرْعَوْنَ مَفْوضًا لِجُنُودِهِ فَيَدْخُلُ فِيهِ مِنَ الْفَضَائِعِ مَا اللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ، وَمَعَ هَذِهِ الْبَلِيَّةِ وَالْمَذَلَّةِ الَّتِي حَلَّتْ بِكُمْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْهَا، وَجَعَلْنَاكُمْ مُلُوكًا وَأُمَرَاءَ، وَمَكَّنَّا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ أَوَلَيْسَتْ هَذِهِ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى آبَائِكُمْ وَإِنِ احْتَقَرْتُمُوهَا تَذَكَّرُوا «**وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ**» أَيْ فَلَقْنَاهُ وَفَرَّقْنَاهُ بَيْنَكُمْ وَلِأَجْلِكُمْ اثْنَيْ عَشْرَةَ طَرِيقَةً يَابِسَةً مُمَهَّدَةً لِلْمَسِيرِ عَلَى عَدَدِ الْأَسْبَاطِ

« **فَأَنْجَيْنَاكُمْ** » مِنْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ ، وَلَمَّا كَانُوا مِنْ خَلْفِكُمْ وَمِنَ الْبَحْرِ ، فَسَلَكْتُمُوهُ سَالِمِينَ « **وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ** » نَكَالًا مِنْ رَبِّكُمْ ، وَاحْتِرَامًا لِجَنَابِكُمْ ، وَاسْتِجَابَةً لِدُعَائِكُمْ « **وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** » فِي غَرَقِهِ وَجُنُودِهِ ، وَفِيمَا وَقَعَ مِنْ آيَةِ اللَّهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ، وَلَكِنَّهُ مِنْ جِبِلَّتِكُمْ كُفْرَانُ النِّعَمِ ، فَلَا تَزْهُوا أَنْفُسَكُمْ ، فَالتَّارِيخُ شَاهِدٌ ، وَإِذَا نُسِيتُمْ فَتَذَكَّرُوا « **وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى** » بْنَ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ « **أَرْبَعِينَ لَيْلَةً** » وَذَلِكَ بَعْدَ إِهْلَاكِ فِرْعَوْنَ ، وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَدَ قَوْمَهُ لِإِذْنِ أَهْلَكَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ لَنَأْتِيَنَّكُمْ بِكِتَابٍ مِنَ اللَّهِ ، فِيهِ هُدًى وَتَفْصِيلٌ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَلَمَّا سَأَلَهُ مِنَ اللَّهِ ضَرَبَ لَهُ مِيقَاتًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا أَنَّ الِانْقِطَاعَ إِلَى اللَّهِ يُعْتَبَرُ بِاللَّيَالِي لَا بِالْأَيَّامِ ، لِأَنَّهَا مَحَلُّ الْهُدُوءِ وَالسُّكُونِ الله تعالى إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فِي الثُّلُثِ الْآخِرِ مِنَ اللَّيْلِ ، فَهِيَ غَنِيمَةُ الْمُنْقَطِعِينَ إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا اسْتَأْنَسُوا بِالْمَدْحِ أَوَّلًا لَزِمَهُ أَنْ يَلْحَقَهُمْ مِنَ الذَّمِّ عَلَى لِسَانِ الْقُرْآنِ مَا يُنْسِيهِمْ مَا سَلَفَ حَتَّى

إِذَا قَالُوا نَحْنُ مَا عَبَدْنَا عِجْلًا وَلَا نَقَضْنَا عَهْدًا وَلَا قَتَلْنَا نَبِيًّا، تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ، فَيُقَالُ لَهُمْ وَلَا أَنْتُمْ أَيْضًا مِمَّنْ فَلَقَ بِهِمُ الْبَحْرَ، وَلَا مِمَّنْ نَزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنُّ وَالسَّلْوَى، وَلَا مِمَّنْ فُضِّلُوا عَلَى الْعَالَمِينَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاتَّبِعُوا النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَاةِ، لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَهَذَا أَوَانُ التَّوْبِيخِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ «**ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ**» فَعَبَدْتُمُوهُ «**مِنْ بَعْدِهِ**» أَيْ مِنْ بَعْدِ ذَهَابِ مُوسَى إِلَى الطُّورِ لِيَأْتِيَكُمْ بِالتَّوْرَاةِ «**وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ**» فِي اتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ إِلَهًا لَا مَحَالَةَ «**ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ**» مَا ارْتَكَبْتُمُوهُ مِنَ الشِّرْكِ الْبَيِّنِ، أَوَلَيْسَ هَذِهِ مِنَّةً كَبِيرَةً، وَلَوْلَا عَفْوُنَا عَنْكُمْ وَرَحْمَتُنَا بِكُمْ بِسَبَبِ رُجُوعِ مُوسَى إِلَيْكُمْ لَازِلْتُمْ عَاكِفِينَ عَلَى عِبَادَةِ الْعِجْلِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَمَعَ جِنَايَتِكُمْ قَبْلَنَاكُمْ «**مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**»، وَلَكِنْ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ، إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولُو الْأَلْبَابِ، وَاذْكُرُوا «**وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**» وَهُوَ التَّوْرَاةُ «**وَالْفُرْقَانَ**» وَهُوَ النُّورُ الْمُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ نُورٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا بِسَبَبِهِ، وَهُوَ

المُشَارُ لَهُ أَوَّلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا ، فَبَنُو إِسْرَائِيلَ وَرِثُوا مِنْ مُوسَى التَّوْرَاةَ ، وَلَمْ يَرِثُوا الْفُرْقَانَ الَّذِي هُوَ النُّورُ ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ، وَنَعْنِي بِالنُّورِ الْمَعْرِفَةَ الْخَاصَّةَ بِأَسْرَارِ الْكِتَابِ وَلَا تَكُونُ إِلَّا بِمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ وَصِدْقِ الطَّوِيَّةِ ، وَآتَيْنَاهُ ذَلِكَ « **لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** » لِمَا فِي الْكِتَابِ ، وَلَكِنْ غَلَبَتْ عَلَيْكُمْ شَقْوَتُكُمْ « **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ** » مِنْ بَعْدِ مَا بَلَغَهُ عَنْهُمْ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ ، وَمَجِيئِهِ مِنَ الْمِيقَاتِ « **يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ** » وَهَلَكْتُمُوهَا « **بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ** » إِلَهًا يُعْبَدُ « **فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ** » أَيْ فَارْجِعُوا إِلَى مَصْوِّرِكُمْ بِالْخُضُوعِ وَالْإِنْكِسَارِ وَالنَّدَامَةِ عَلَى مَا فَعَلْتُمُوهُ ، وَإِذَا أَرَدْتُمُ الْأَسْبَابَ الدَّاعِيَةَ لِقَبُولِ التَّوْبَةِ ، « **فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ** » الْقَتْلُ « **خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ** » إِنْ فَعَلْتُمُوهُ « **فَتَابَ عَلَيْكُمْ** » عَلَى ذَلِكَ الشَّرْطِ أَيْ إِنْ قَتَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ « **إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ** » أَيْ كَثِيرُ قَبُولِ التَّوْبَةِ ، وَإِنْ تَكَرَّرَ نَقْضُهَا كَمَا تَكَرَّرَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ ، وَيَفْعَلُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ « **الرَّحِيمُ** » بِعِبَادِهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الْقَتْلَ هَذَا هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ

بِالْمُجَاهَدَةِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالسَّعْيِ فِي إِبْطَالِ شَهَوَاتِهَا بِالْمَرَّةِ وَهَذِهِ الْمَوْتُ الْمُعْتَبَرَةُ فِي قَبُولِ التَّوْبَةِ، الْمُشَارُ لَهَا فِي الْحَدِيثِ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مُوتُوا قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا»، وَقِيلَ إِنَّ الْمُرَادَ بِالْقَتْلِ هُوَ قَتْلٌ بِالْفِعْلِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ ذِكْرُهُ أَمَرَ مَنْ لَمْ يَعْبُدِ الْعِجْلَ أَنْ يَقْتُلَ مَنْ عَبَدَهُ، فَأَشْفَقَ الْقَرِيبُ مِنْ قَتْلِ قَرِيبِهِ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ سَحَابَةً سَوْدَاءَ حَتَّى لَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَمَاتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَحْوُ السَّبْعِينَ أَلْفًا، وَلَمَّا رَأَى مُوسَى الْقَتْلَ مُسْتَرْسِلًا دَعَا رَبَّهُ أَنْ يَكْشِفَ فِيمَا حَلَّ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ، فَانْقَشَعَتِ السَّحَابَةُ وَانْتَهَى الْقِتَالُ.

الِاسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ) إِلَى قَوْلِهِ (رَحِيمٌ) أَرْبَعَةَ عَشَرَ حُكْمًا:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ فِرْعَوْنَ بَلَغَ مِنْ تَسَلُّطِهِ عَلَى الْإِسْرَائِيلِيِّينَ إِلَى أَنْ صَارَ يَذْبَحُ الْأَبْنَاءَ الصِّغَارَ، وَلَا مَنْ يُوَاجِهُهُ بِصِفَةِ الْإِنْكَارِ.

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ لِغَرَضٍ، وَإِلَّا لَمَا تَرَكَ الْبَنَاتِ

مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَكُمْ﴾.

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ فِعْلَهُ ذَلِكَ كَانَ مِمَّا تَشْمَئِزُّ مِنْهُ النُّفُوسُ، فَهُوَ أَبْعَدُ عَنِ الإِنْسَانِيَّةِ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الضَّعِيفَ لَا بُدَّ وَأَنَّ اللَّهَ يَنْتَصِرُ مِنْ أَجْلِهِ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾.

الْخَامِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الظَّالِمَ لَا بُدَّ وَأَنَّ اللَّهَ يَنْتَقِمُ مِنْهُ كَيْفَمَا كَانَ، وَيَشْفِي صُدُورَ الْمَظْلُومِينَ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.

السَّادِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الِانْقِطَاعَ إِلَى اللَّهِ وَالِاعْتِكَافَ مِنْ أَجْلِهِ فِي سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

السَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ اللَّيْلَ أَفْضَلُ مِنَ النَّهَارِ مِنْ جِهَةِ تَفَرُّغِ الْقَلْبِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ، مِنِ اعْتِبَارِهِ تَعَالَى الْمِيقَاتَ لِمُوسَى بِاللَّيْلِ.

الثَّامِنُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الِاعْتِكَافَ الْمَنْذُورَ لَا بُدَّ وَأَنْ تُعْتَبَرَ فِيهِ اللَّيَالِي مِنَ الْقِصَّةِ أَيْضًا.

التَّاسِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُرْشِدَ إِذَا أَمَرَ أَحَدَ التِّلَامِذَةِ بِخَلْوَةٍ أَنْ لَا يَزِيدَ عَلَى الْأَرْبَعِينَ لَيْلَةً حَصَلَ أَوْ لَمْ يَحْصُلْ مِنَ الْقِصَّةِ أَيْضًا .

الْعَاشِرُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُرْشِدَ إِذَا لَمْ تَنْجَحْ أَتْبَاعُهُ لَيْسَ ذَلِكَ بِنَقْصٍ فِي حَقِّهِ ، مِنِ اتِّخَاذِ أَتْبَاعِ مُوسَى الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ .

الْحَادِي عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُرْتَدَّ أَقْرَبُ مِنْ عَفْوِ اللَّهِ إِنْ رَجَعَ عَنْ غَيِّهِ ، مِنْ قَوْلِهِ : (ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ) .

الثَّانِي عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْفُرْقَانَ لَيْسَ هُوَ مِمَّا يُحْتَمَلُ حِفْظُهُ ، مِنْ ظَاهِرِ الْكِتَابِ ، إِنَّمَا هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ شَيْءٍ خُصِّصَ بِهِ النَّبِيُّ وَمَنْ هُوَ عَلَى شَاكِلَتِهِ ، وَإِلَّا لَمَا صَحَّ الْعَطْفُ فِي قَوْلِهِ : (وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ) .

الثَّالِثُ عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ نُزُولَ الْكِتَابِ عَنِ الرَّسُولِ لِهِدَايَةِ قَوْمِهِ ، وَإِلَّا فَهُوَ قَدِ اهْتَدَى بِدُونِهِ ، مِنْ قَوْلِهِ : (لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) .

الرَّابِعُ عَشَرَ : عَلِمْنَا بِأَنَّ التَّوْبَةَ فِي غَيْرِ الْإِسْلَامِ كَانَتْ لَا بُدَّ وَأَنْ تَتَوَقَّفَ عَلَى شَيْءٍ يَشُقُّ فِعْلُهُ عَلَى النَّفْسِ ، مِنْ قَوْلِهِ : (اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) .

الْإِشَارَةُ : لَا تُعْتَبَرُ مِنَ الْفِرْعَوْنِيَّةِ إِلَّا الْوَصْفُ الْقَائِمُ بِكُلِّ نَفْسٍ أَمَّارَةٍ

لِأَنَّهَا مَهْمَا تَحَكَّمَتْ عَلَى مَدِينَةِ الْبَدَنِ تَعَبَتْ بِالْجَوَارِحِ أَكْثَرَ مِنْ عَبَثِ فِرْعَوْنَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ، فَتَذْبَحُ الْقُلُوبَ الْمُعَبَّرَ عَنْهَا بِالْأَبْنَاءِ، وَتَسْتَحْيِي النُّفُوسَ الْمُشَارَ لَهَا بِالنِّسَاءِ، وَتَدَّعِي بِالْإِسْتِقْلَالِ فِي الْبَدَنِ وَأَنَّهَا الْفَعَّالَةُ فِيهِ لَا غَيْرَ، وَتَقُولُ لِلْجَوَارِحِ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي، فَمَا عَلَيْكُمْ إِلَّا السَّمْعُ وَالْإِمْتِثَالُ، وَيَكُونُ الْإِمْتِنَانُ مِنَ اللَّهِ رَاجِعًا لِكُلِّ نَفْسٍ لَوَّامَةٍ، فَهِيَ النَّاجِيَةُ مِنَ الْوَصْفِ الْقَائِمِ بِالْأَمَّارَةِ مَعَ بَقِيَّةٍ يُخْشَى مِنْ عَوْدِهَا، وَلِهَذَا رَجَعَتْ طَائِفَةٌ مِنْهَا إِلَى عِبَادَةِ الْعَاجِلَةِ، الْمُعَبَّرِ عَنْهَا بِالْعِجْلِ لَمَّا تَوَجَّهَ الْقَلْبُ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِمُوسَى إِلَى مِيقَاتِ رَبِّهِ وَهِيَ خَطِيئَةٌ تَسْتَوْجِبُ عَلَيْهَا الْمَقْتَ. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ)، وَالْإِنْكِبَابُ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ وَظِيفَةِ النُّفُوسِ اللَّوَّامَةِ، وَلَنْ تَتَحَقَّقَ لَهَا السَّلَامَةُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْفَنَاءِ وَالْمَوْتِ الْأَبَدِيِّ وَلِهَذَا لَمَّا جَاءَ مُوسَى فَقَالَ إِنْ أَرَدْتُمُ الْخَلَاصَ مِنْ جَمِيعِ النَّقَائِصِ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ، ثُمَّ إِنَّ الْوَصْفَ الْجَامِعَ بَيْنَ الْفِرْعَوْنِيَّةِ وَالنَّفْسِ الْأَمَّارَةِ هُوَ الْخُرُوجُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَدَعْوَةُ

الإسْتِدْلَالِ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا، وَعَلَى هَذَا كُلُّ مَنْ يَرَى لِنَفْسِهِ أَدْنَى وُجُودٍ يُمَيِّزُهُ عَنِ الْعَدَمِ فَهُوَ آخِذٌ بِحَظِّهِ مِنَ الْفِرْعَوْنِيَّةِ، وَأَمَّا الْوَصْفُ الْجَامِعُ بَيْنَ الْعِجْلِ وَالْعَاجِلَةِ فَهُوَ الِاسْمُ، وَكَوْنُ الْعِجْلِ مَصُوغًا مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، فَكَانَ الْعُكُوفُ عَلَيْهِمَا وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَطْيَبُ مِنْهُمَا، فَالْعَاكِفُ عَلَى الدُّنْيَا هُوَ عَاكِفٌ عَلَى الْعِجْلِ، وَالْعَاكِفُ عَلَى الْعِجْلِ هُوَ الْعَاكِفُ عَلَى الدُّنْيَا. وَالْوَصْفُ الْجَامِعُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وُجُودُ الِاخْتِصَاصِ بِالْحَقِّ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا، لِأَنَّ مُوسَى قَالَ فِيهِ تَعَالَى: (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) وَقَالَ فِي الْقَلْبِ (لَا يَسَعُنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي وَيَسَعُنِي قَلْبُ عَبْدِيَ الْمُؤْمِنِ)، فَمُوسَى أَحْوَجُ إِلَى قَلْبِهِ أَشَدُّ مِنِ احْتِيَاجِ قَلْبِهِ إِلَيْهِ.

لِسَانُ الرُّوحِ

فِي قَوْلِهِ: (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) يَقُولُ إِنَّ الْإِغْرَاقَ نَتِيجَةُ الِاسْتِغْرَاقِ، وَالْبَلَلُ أَحْسَنُ مِنْهُ، وَالْعَجَبُ مِمَّنْ خَاضَ الْبَحْرَ وَلَمْ يَبْتَلَّ.

التَّفْسِيرُ: وَلَمَّا أَنْهَى تَعَالَى الْكَلَامَ عَلَى الْجِنَايَةِ الَّتِي ارْتَكَبَهَا بَنُو

إِسْرَائِيلَ مِنْ جِهَةِ عِبَادَةِ الْعِجْلِ شَرَعَ فِي ذِكْرِ جِنَايَةٍ أُخْرَى فَقَالَ: «وَإِذْ قُلْتُمْ» أَيْ تَذَكَّرُوا مَقَالَتَكُمْ عِنْدَ مَا خَرَجْتُمْ تَعْتَذِرُونَ إِلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ «يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً» أَيْ بِالْأَبْصَارِ، وَالْقَائِلُونَ هُمُ السَّبْعُونَ الْمُخْتَارُونَ لِلْمِيقَاتِ «فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ» الَّتِي كَادَتْ أَنْ تَذْهَبَ بِكُمْ إِلَى الْعَدَمِ الْمَحْضِ «وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» مَا حَلَّ بِكُمْ «ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ» أَيْ أَرْجَعْنَاكُمْ إِلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، فَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى مُفَارَقَتِهِمُ الدُّنْيَا، وَقَالَ وَهْبٌ أَنَّهُمْ لَمْ يَمُوتُوا، إِنَّمَا أَخَذَتْهُمْ رَعْدَةٌ وَرَجْفَةٌ لَمَّا عَايَنُوا تِلْكَ الْهَيْبَةَ الْهَائِلَةَ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ إِطْلَاقُ الْمَوْتِ هُنَا مِنْ قَبِيلِ إِطْلَاقِهِ عَلَى النَّوْمِ أَحْيَانًا وَالْبَعْثُ مِنْ ذَلِكَ الْقَبِيلِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ لِنَعْلَمَ وَالَّذِي يُقَوِّي حُجَّةَ مَا ذَكَرْنَاهُ هُوَ قَوْلُهُ: «وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» إِنَّمَا لَوْ حَصَلَتْ لَهُمْ مُفَارَقَةُ الْأَبْدَانِ لَمْ يَتَمَكَّنْ لَهُمُ النَّظَرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - ثُمَّ أَقُولُ لَا جِنَايَةَ فِي سُؤَالِ الرُّؤْيَةِ لِأَنَّ مُوسَى كَانَ سَأَلَهَا مِنْ قَبْلُ، إِنَّمَا الْجِنَايَةُ فِي تَعْلِيقِ الْإِيمَانِ عَلَيْهَا فِي قَوْلِهِمْ: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، وَهَذَا أَبْلَغُ غَايَةٍ

فِي ضَعْفِ الْعَقِيدَةِ لِمَا يَلْزَمُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ فِي حَالِ سُؤَالِهِمْ لَهَا، وَهَذَا مُسْتَبْعَدٌ جِدًّا فِي عُصْبَةٍ مِنْ خِيَارِ قَوْمِ كَلِيمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ عَلَى حَدِّ قَضِيَّةِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَمَا قَالَ لَهُ تَعَالَى: أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي. وَلَعَلَّكَ تَقُولُ فَأَيُّ الْجِنَايَةِ إِنْ كَانَ السُّؤَالُ سَيِّفُهم بِهِ كَلِيمُ اللَّهِ، وَنَصُّ السُّؤَالِ جَاءَ عَلَى حَدِّ قَضِيَّةِ خَلِيلِ اللَّهِ، فَأَقُولُ إِنَّ الْجِنَايَةَ تَتَحَقَّقُ فِي عَدَمِ شُكْرِهِمْ نِعْمَةَ الْبَعْثِ الْمُشَارَ لَهَا بِقَوْلِهِ: ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ، «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» وَهَذَا بِالنَّظَرِ إِلَى نَصِّ السُّؤَالِ فَحَسْبُ. وَأَمَّا لَوْ تَتَبَّعْنَا أَلْفَاظَهُ لَوَجَدْنَا فِي كُلِّ لَفْظٍ جِنَايَةً وَتَقْصِيرًا، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: يَا مُوسَى، فَهُوَ خِطَابٌ مُجَرَّدٌ مِنْ كُلِّ احْتِرَامٍ، وَلَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى بِهِ حَسْبَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ: لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا، الثَّانِي سُوءُ التَّعْبِيرِ فِي قَوْلِهِمْ: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ، فَلَوْ قَالُوا لَنْ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا حَتَّى نَرَى اللَّهَ لَكَانَ أَجْمَلَ. الثَّالِثُ: زِيَادَتُهُمُ اللَّامَ

وَالْكَافَ ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ : لَكَ ، فَكَأَنَّهُمْ يَمُنُّونَ عَلَيْهِ إِيمَانَهُمْ ، وَالْحَقُّ يَنْهَى عَنْ ذَلِكَ ، كَمَا فِي الْقُرْآنِ : فَلَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ، بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ.

الرَّابِعُ : تَقْيِيدُ الرُّؤْيَةِ بِكَوْنِهَا جَهْرَةً فِيهِ خُرُوجٌ عَنْ سُنَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لِأَنَّهُ لَمْ يُقَيِّدْهَا بِكَوْنِهَا جَهْرَةً ، إِنَّمَا قَالَ : رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ. الْخَامِسُ : فَرْطُ الْجَفَاءِ الْمُسْتَفَادِ مِنْ قَوْلِهِمْ : حَتَّى نَرَى اللَّهَ بِعَدَمِ إِضَافَتِهِ لَهُمْ ، وَلَوْ قَالُوا حَتَّى نَرَى رَبَّنَا وَإِلَهَنَا لَكَانَ أَحْسَنَ وَهَكَذَا سَائِرُ أَلْفَاظِهِمْ لَوْ تَتَبَّعْتَهَا غَالِبًا.

الِاسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ تَشْكُرُونَ ﴾ خَمْسَةُ أَحْكَامٍ :

الْأَوَّلُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ كَانَتْ لَهُمْ جَفْوَةٌ وَغِلْظَةٌ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، مِنْ قَوْلِهِ : يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ.

الثَّانِي : عَلِمْنَا بِأَنَّ إِيمَانَ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ كَانَ عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ مَتِينٍ فَهُوَ إِلَى الضَّعْفِ أَقْرَبُ مِنْهُ إِلَى الْقُوَّةِ ، مِنْ قَوْلِهِ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى

نُرَى اللَّهَ جَهْرَةً.

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ شِدَّةَ الْبَحْثِ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ، وَتَكْلِيفَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ بِمَا يَزِيدُ عَلَى الْقَدْرِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ هِيَ خِطَّةٌ وَخِيمَةٌ، وَذَلِكَ مِنْ تَشْنِيعِهِ تَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ.

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَايَنُوا مَا حَلَّ بِهِمْ وَقْتَ الصَّعْقَةِ فَالْمَعْنَى لَمْ تَحْصُلْ لَهُمْ مُجَرَّدَ غَمْرَةٍ، مِنْ قَوْلِهِ: (وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ).

الْخَامِسُ: عَلِمْنَا أَنَّ مَا حَلَّ بِهِمْ يُؤْذِنُ بِمُفَارَقَتِهِمُ الْحَيَاةَ إِمَّا مِنْ طَرِيقَةِ الْمَعْنَى وَإِمَّا مِنْ طَرِيقَةِ الْحِسِّ، مِنْ قَوْلِهِ: ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ.

الإِشَارَةُ

فِي قَوْلِهِ: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) لَا تَعْتَبِرُ الْقِصَّةَ إِلَّا مِنَّةً مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، إِلَّا مِنْ جِهَةِ عَدَمِ الشُّكْرِ عَلَيْهَا عَادَتْ جِنَايَةً عَلَى أَفْرَادِهِمْ، وَكَيْفَ لَا وَهِيَ صَادِرَةٌ مِنْ خَاصَّةِ أَتْبَاعِ كَلِيمِ اللَّهِ الْمُخْتَارِينَ لِمِيقَاتِ اللَّهِ، الْمُسْتَمِعِينَ لِكَلَامِ اللَّهِ، فَبَعْدَ مَا اسْتَمَعُوا مِنْ كَلَامِهِ اشْتَاقُوا لِرُؤْيَةِ ذَاتِهِ، وَهِيَ قَاعِدَةٌ مُطَّرِدَةٌ

كُلُّ مَنْ سَمِعَ الْكَلَامَ إِشْتَاقَ إِلَى رُؤْيَةِ الْمُتَكَلِّمِ، وَهِيَ خِطَّةُ مُوسَى، فَلَا تَعْدِمْ تَمَامًا مِنْ أَتْبَاعِهِ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا كَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ: رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ، لِأَنَّ ظُهُورَ الذَّاتِ يَسْتَلْزِمُ تَقَدُّمَ ظُهُورِ الصِّفَاتِ غَالِبًا، وَلَمَّا ظَهَرَتْ صِفَةُ الْكَلَامِ لَنْ يَبْعُدَ حِينَئِذٍ ظُهُورُ الْمُتَكَلِّمِ فَسُؤَالُهُمُ الرُّؤْيَا لَيْسَ بِمُحَالٍ إِلَّا مِنْ جِهَةِ عَدَمِ الْإِسْتِعْدَادِ لَهَا الْمُحْتَمَلِ فِي الْبَعْضِ، ثُمَّ أَنَّ السُّؤَالَ يَتَضَمَّنُ شَيْئًا مِنْ رَفْعِ الْهِمَّةِ. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَعَظِّمُوا الْمَسْأَلَةَ) وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ هِمَّةَ هَؤُلَاءِ أَرْفَعُ مِمَّنْ قَالَ لِمُوسَى: أُدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ إِلَى آخِرِهِ. وَفِي كَوْنِ أَلْفَاظِ السُّؤَالِ فَارِغَةً مِنَ الْأَدَبِ لَا يَضُرُّ إِنْ كَانَ الْحَامِلُ عَلَى ذَلِكَ الْإِشْتِيَاقَ، لِأَنَّ الْإِسَاءَةَ لَا تَضُرُّ مَعَ الْحُبِّ وَإِنْ كَانَتْ لَمْ تُوجَدْ هَذِهِ الصِّفَةُ فِي جَمِيعِهِمْ لَا تَعْدِمُ مِنْ بَعْضِهِمْ وَعَلَى هَذَا يَصِيرُ مَعْنَى الْآيَةِ تَذَكَّرُوا إِذْ قُلْتُمْ لَمَّا سَمِعْتُمْ مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي هُوَ أَعْلَى وَأَرْفَعُ مِنْ أَنْ يَسْمَعَهُ كُلُّ مَخْلُوقٍ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ الْإِيمَانَ الْكَامِلَ الَّذِي تَرْضَاهُ مِنَّا حَتَّى نَرَى اللَّهَ رُؤْيَةَ عِيَانٍ لَا رُؤْيَةَ

إِيمَانٍ، فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ الَّتِي هِيَ مِنْ لَوَازِمِ التَّجَلِّي عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الْفَنَاءُ، كَمَا حَصَلَتْ لِمُوسَى، وَلَا شَكَّ أَنَّهَا حَاصِلَةٌ لَهُمْ بِسُؤَالِ مُوسَى لَهَا، وَإِلَّا فَهِيَ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ تَحْصُلَ بِمُجَرَّدِ قَوْلِهِمْ: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، وَبَعْدَ حُصُولِ الْفَنَاءِ وَالِانْضِمْحَلَالِ بَعَثْنَاكُمْ إِلَى الْبَقَاءِ لَعَلَّكُمْ تَقُومُونَ بِشُكْرِ نِعْمَةِ التَّجَلِّي، لِأَنَّ صَاحِبَ الْفَنَاءِ لَا يَقُومُ بِوَاجِبِ الشُّكْرِ إِلَّا إِذَا انْبَعَثَ بِاللَّهِ بَعْدَ الْفَنَاءِ بِنَفْسِهِ.

لِسَانُ الرُّوحِ

يَقُولُ إِنَّ مُوسَى لَنْ تَصْبِرَ هَذِهِ الصَّعْقَةَ الَّتِي أَصَابَتْ قَوْمَهُ لِأَنَّهَا قَدْ كَانَتْ أَصَابَتْهُ مِنْ قَبْلُ.

التَّفْسِيرُ

وَمِنْ تَمَامِ لُطْفِهِ تَعَالَى وَحُسْنِ عَطْفِهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَذْكُرَ لِهَذِهِ الطَّائِفَةِ مِنْ جِنَايَتِهَا، ثُمَّ يَذْكُرَ مِنْ إِنْعَامِهِ عَلَيْهَا وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: «**وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ**» أَيْ مِنْ بَعْدِ مَا بَعَثْنَاكُمْ مِنَ الصَّعْقَةِ ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ، تَقِيكُمْ حَرَّ الشَّمْسِ فِي التِّيهِ، لِتَسِيرُوا بِسَيْرِكُمْ

أَوَلَيْسَ هَذَا مِنَ الإِحْسَانِ فِي مَكَانٍ «وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ» هِيَ نَوْعٌ مِنَ الأَكْلِ تَشْبِهُ الْعَسَلَ، تَنْزِلُ مِنَ الْجَوِّ عَلَى هَيْئَةِ الثَّلْجِ آخِرَ اللَّيْلِ وَيَجْمَعُونَهَا صَبَاحًا «وَالسَّلْوَى» وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الطَّيْرِ، يُسَاقُ إِلَيْهِمْ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَيَذْبَحُونَ مِنْهُ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ وَلَا كُلْفَةٍ، وَكُلُّ ذَلِكَ لِتَتَفَرَّغُوا لِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَقُلْنَا لَكُمْ: «كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ» وَهِيَ الْمَنُّ وَالسَّلْوَى وَالطَّيِّبُ فِيهِمَا مِنْ وَجْهَتَيْنِ، مِنْ جِهَةِ الْمَذَاقِ وَالْحِلِّيَّةِ، فَبَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَمْنَعُوا النِّعْمَةَ إِنَّمَا مَنَعُوا الشُّكْرَ. قَالَ تَعَالَى: «وَمَا ظَلَمُونَا» بِكُفْرَانِهِمْ تِلْكَ النِّعَمَ الْجَلِيَّةَ وَالْخَيْرَاتِ الْجَزِيلَةَ «وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» فَوَبَالُ أَمْرِهِمْ رَاجِعٌ عَلَيْهِمْ، فَلَحِقَهُمْ مِنَ الْهَوَانِ بِقَدْرِ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ، سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَمِنْ كُفْرَانِهِمْ وَعَدَمِ امْتِثَالِهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِذْ قُلْنَا» لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ فَرَاغِهِمْ مِنَ التِّيهِ: «ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ» وَهِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ عَلَى مَا قِيلَ «فَكُلُوا مِنْهَا» أَيْ مِمَّا فِيهَا مِنَ الْفَوَاكِهِ وَالنِّعَمِ «حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا» أَيْ وَسْعًا وَرَفَاهِيَةً

«وَادْخُلُوا الْبَابَ» أَيْ مِنْ بَابِ الْقَرْيَةِ إِذَا أَرَدْتُمُ الدُّخُولَ «سُجَّدًا» حَالَ الدُّخُولِ، أَيْ خَاضِعِينَ لِلَّهِ، لَا مُتَكَبِّرِينَ وَلَا مُعْجَبِينَ بِأَنْفُسِكُمْ وَأَمَّا السُّجُودُ عَلَى وَجْهِهِ فَلَا يُتَصَوَّرُ حَالَ الدُّخُولِ إِلَّا إِذَا أُوِّلَ بِالِانْحِنَاءِ «وَقُولُوا حِطَّةٌ» فِي حَالِ الدُّخُولِ، وَهِيَ كَلِمَةٌ مِنَ الْمُتَشَابِهِ، لَمْ يَتَّضِحْ مَعْنَاهَا، امْتَحَنَهُمُ اللَّهُ بِذِكْرِهَا «يَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ» أَيْ نَسْتُرْ عَنْكُمْ جَمِيعَ مَا ارْتَكَبْتُمُوهُ مِنَ الْمُخَالَفَةِ وَنَقْضِ الْعُهُودِ إِنْ دَخَلْتُمُ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْتُمْ حِطَّةٌ، وَهَذَا تَكْلِيفٌ غَيْرُ شَاقٍّ لِمَنْ سَبَقَتْ لَهُ الْعِنَايَةُ «وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ» مِنْكُمْ عَنْ غُفْرَانِ الْخَطِيئَةِ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا» مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ «قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ» أَيْ فَاسْتَبْدَلُوا قَوْلَ حِطَّةٍ بِمَا بَدَا لَهُمْ، حَيْثُ لَمْ يَتَّضِحْ عِنْدَهُمْ مَعْنَاهَا وَدَخَلُوا الْبَابَ أَيْضًا غَيْرَ سَاجِدِينَ، وَكُلُّ هَذَا اسْتِهْزَاءٌ مِنْهُمْ وَاسْتِخْفَافٌ بِمَنْ بَلَّغَهُمُ الْأَمْرَ عَلَى لِسَانِهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَصْدُرْ ذَلِكَ مِنْ خَاصَّتِهِمْ «فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» مِنْهُمْ «رِجْزًا مِنَ

السَّمَاءِ» أَيْ دَاءٌ وَوَبَاءٌ، فَمَاتَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي نَحْوِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ مَا يَعْلَمُ بِهِ اللَّهُ، وَكَانَ ذَلِكَ جَزَاءً «بِمَا كَانُوا يَفْسِقُونَ» وَبِآيَةِ اللَّهِ يَسْتَهْزِؤُونَ.

الإِسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ، إِلَى قَوْلِهِ: يَفْسِقُونَ، ثَمَانِيَةُ أَحْكَامٍ:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْوِلَايَةَ كَرَامَةٌ مِنَ اللَّهِ لِعَبْدِهِ، لَا تَتَوَقَّفُ عَلَى حُسْنِ سِيرَةِ الْعَبْدِ مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ. مِنْ قَوْلِهِ: وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ، بَعْدَمَا ذَكَرَ تَعَالَى مِنْ سُوءِ مُعَامَلَتِهِمْ مَا يُؤْذِنُ بِالِانْقِطَاعِ.

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُنْقَطِعَ إِلَى اللَّهِ حَقِيقٌ بِأَنْ يَأْتِيَهُ رِزْقُهُ رَغَدًا، مِنْ حَيْثُ لَا يَتْعَبُ كَثِيرًا مِنْ أَجْلِهِ، مِنْ قَوْلِهِ: وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى.

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِإِبَاحَةِ أَكْلِ الطَّيِّبَاتِ لِلْمُنْقَطِعِينَ إِلَى اللَّهِ. مِنْ قَوْلِهِ: كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ.

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ ظُلْمَ الظَّالِمِ عَائِدٌ عَلَيْهِ، وَأَنَّ اللَّهَ مُتَعَالٍ عَلَى أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ، مِنْ قَوْلِهِ: وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

الْخَامِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ السُّجُودَ قَدْ يُطْلَقُ عَلَى غَيْرِ السُّجُودِ الْمَعْرُوفِ بِوَضْعِ الْجَبْهَةِ عَلَى الْأَرْضِ، مِنْ قَوْلِهِ: وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا لِأَنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ حَالَ الدُّخُولِ.

السَّادِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْأَلْفَاظَ الَّتِي لَا نُدْرِكُ مَعْنَاهَا قَدْ يُؤْجَرُ الْعَبْدُ عَلَيْهَا مَهْمَا اسْتَعْبَدَنَا تَعَالَى بِذِكْرِهَا، كَفَوَاتِحِ السُّوَرِ وَنَحْوِهَا، مِنْ قَوْلِهِ: وَقُولُوا حِطَّةٌ، لِأَنَّ مَعْنَاهَا لَمْ يَتَّضِحْ عِنْدَهُمْ حَالَ الْأَمْرِ بِهَا.

السَّابِعُ: عَلِمْنَا بِعَدَمِ جَوَازِ اسْتِبْدَالِ الْمُتَعَبَّدِ بِذِكْرِهَا، وَلَوْ بِمُرَادِفِهَا، مِنْ قَوْلِهِ: فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ.

الثَّامِنُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ التَّبْدِيلَ وَالتَّغْيِيرَ فِي أَحْكَامِ اللَّهِ أَشَدُّ عُقُوبَةً عَلَى الْفَاعِلِ مِنْ تَرْكِ الْفِعْلِ بِهِ، مِنْ قَوْلِهِ: فَأَنْزَلْنَا عَلَى

الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ، حَيْثُ رَتَّبَ نُزُولَ الْمَسْخِ عَلَى تَبْدِيلِ الْقَوْلِ.

الْإِشَارَةُ

تَحْمِلُ تَظْلِيلَ الْغَمَامِ بَعْدَ صَاعِقَةِ الْفَنَاءِ عَلَى إِثْبَاتِ رَوَاقِ الْحِسِّ وِقَايَةً مِنْ شُعَاعِ حَضْرَةِ الْقُدْسِ حَالَ الْحَيْرَةِ مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ، الْمُعَبَّرِ عَنْهَا بِالتِّيهِ، وَلَوْلَا وُجُودُ الرَّوَاقِ الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِالْغَمَامِ لَوَقَعَ التَّلَاشِي، لِمَا فِي الْحَدِيثِ لَوْ كُشِفَ عَنْ سُبُحَاتِ وَجْهِهِ لَاحْتَرَقَ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ، وَإِذًا لَتَعَطَّلَتِ الْحِكْمَةُ، وَسَقَطَ التَّكْلِيفُ، وَالْحَقُّ أَرْفَقُ بِعِبَادِهِ مِنْ ذَلِكَ، فَقَدَّرَ تَعَالَى نَوْعًا مِنَ الشَّيْءِ كَلَا شَيْءٍ فِي نَظَرِ الْعَارِفِ، حَتَّى تَقُومَ بِنْيَتُهُ، وَيَسْتَقِيمَ سَيْرُهُ، وَهُوَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ فِي صُورَةِ عَكْسِهَا. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إِنَّهُ لَيُغَارُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ سَبْعِينَ مَرَّةً فِي الْيَوْمِ فَكَانَ الْغَانُ نِعْمَةً عَلَى أَهْلِهِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ حَيْثُ كَانَ مُسْتَجْلِبًا لِلِاسْتِغْفَارِ، ثُمَّ أَنَّ نُزُولَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى يَشْمَلُ

نُزُولَ الْمَعَارِفِ الإِلٰهِيَّةِ عَلَى قُلُوبِ الأَصْفِيَاءِ مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ.
إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَمَنْ قَيَّدَهَا بِعُقَالِهَا دَامَتْ
وَمَنْ تَرَكَهَا رَجَعَتْ مِنْ حَيْثُ جَاءَتْ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
لِنَفْسِهِ، وَإِلَيْهَا الإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ: وَمَا ظَلَمُونَا وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ. ثُمَّ إِنَّ دُخُولَ الْقَرْيَةِ بَعْدَ التِّيهِ، وَإِبَاحَةَ الأَكْلِ مِنْهَا
رَغَدًا عِبَارَةٌ عَنِ الرُّجُوعِ إِلَى الشَّرِيعَةِ وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا بِدُونِ
أَنْ يَسْتَشِفَّ الْعَارِفُ شَيْئًا مِمَّا حَوَتْهُ، كَمَا كَانَ فِي الْبِدَايَةِ وَإِنْ
وَقَعَ مِنْهُ فِي حَالِ التِّيهِ مَا يُوهِمُ الْخُرُوجَ عَنْهَا، وَلِهٰذَا يَقُولُونَ أَنَّ
حَقِيقَةَ النِّهَايَةِ هِيَ الرُّجُوعُ إِلَى الْبِدَايَةِ. ثُمَّ إِنَّ الدُّخُولَ إِلَى هٰذِهِ
الْقَرْيَةِ وَالْمُكْثَ فِيهَا وَالأَكْلَ مِنْهَا رَغَدًا لَا يَحْصُلُ لِلْعَارِفِينَ إِلَّا
إِذَا دَخَلُوهَا سُجَّدًا لِجَمِيعِ أَوَامِرِهَا وَنَوَاهِيهَا، وَمَنْ بَدَّلَ قَوْلًا
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُ يَخْشَى أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِ رِجْزًا مِنْ
عِنْدِهِ، وَأَقَلُّ ذٰلِكَ أَنْ يَطْرُدَهُ عَنْ بَابِهِ، عَصَمَنَا اللَّهُ
مِنْ سُوءِ الْعَوَاقِبِ.

لِسَانُ الرُّوحِ

سَأَلْتُهُ عَنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الَّتِي أُذِنَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الدُّخُولِ إِلَيْهَا، فَقَالَ إِنَّهَا كَانَتْ أَوْسَعَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ الَّتِي دَخَلَهَا آدَمُ لَوْ دَخَلُوهَا سَاجِدِينَ، فَقُلْتُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: إِنَّهَا لَمْ تُقَيَّدْ عَلَيْهِمْ بِشَجَرَةٍ دُونَ أُخْرَى كَمَا قُيِّدَتْ عَلَى آدَمَ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا. غَيْرَ أَنَّ آدَمَ زَلَّ فِي جَنَّتِهِ حَدَّ الْمُكْثِ فِيهَا، وَهَؤُلَاءِ زَلُّوا حَالَ الدُّخُولِ.

التَّفْسِيرُ

ثُمَّ أَخَذَ تَعَالَى فِي تَذْكِيرِهِمْ بِنِعْمَةٍ أُخْرَى، فَقَالَ: «وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ» أَيْ سَأَلَ الْغَيْثَ مِنَ اللَّهِ كَمَا هِيَ السُّنَّةُ «لِقَوْمِهِ» لَمَّا طَلَبُوا ذَلِكَ مِنْهُ عِنْدَمَا فَقَدُوا الْمَاءَ فِي التِّيهِ وَظَنُّوا بِاللَّهِ الظُّنُونَ «فَقُلْنَا» لِمُوسَىٰ لَمَّا أَرَدْنَا إِغَاثَتَهُ «اضْرِبْ بِعَصَاكَ» وَهِيَ الْعَصَا الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ سَيِّدِنَا شُعَيْبٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ «الْحَجَرَ» قِيلَ هُوَ حَجَرٌ مُعَيَّنٌ، وَقِيلَ

إِنَّ الأَلِفَ وَاللَّامَ فِيهِ لِلْجِنْسِ، وَهُوَ الْأَقْرَبُ، وَلَيْسَ فِي الآيَةِ تَخْصِيصٌ «فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ» أَيْ مِنْ ذَلِكَ الْحَجَرِ الْمُتَقَدِّمِ «اثْنَتَا عَشْرَ عَيْنًا» عَلَى عَدَدِ الْأَسْبَاطِ، حَتَّى لَا يَقَعَ بَيْنَهُمْ تَزَاحُمٌ عَلَى الْمَاءِ، فَرُبَّمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مَا هُوَ كَالْقِتَالِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ «قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ» إِمَّا بِإِلْهَامٍ مِنَ اللَّهِ، أَوْ بِأَمْرٍ مِنْ مُوسَى، وَكَانَ عَدَدُهُمْ عَلَى مَا قِيلَ يَقْرُبُ مِنَ السِّتِّمِائَةِ أَلْفٍ، ثُمَّ إِنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَسْتَسْقِي لِقَوْمِهِ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَلَا يَنْزِلُ مِنْ فَوْقِهِ حَتَّى تَمْطِرَ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا «كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ» أَيْ قُلْنَا لَهُمْ كُلُوا مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى، وَاشْرَبُوا مِنَ الْمَاءِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ. وَلَمَّا كَانَ الْوَسَعُ فِي الْعَيْشِ وَالرَّفَاهِيَةِ قَدْ يُفْضِيَانِ إِلَى الْعُتُوِّ وَالْفَسَادِ، حَذَّرَهُمْ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» عَصَمَنَا اللَّهُ مِنَ الْفَسَادِ، وَوَقَانَا سُوءَ الْمَعَادِ، آمِين

الإستنباط

يستخرج من قوله: (وإذ استسقى موسى) إلى قوله: (مفسدين) أربعة أحكام:

الأول: علمنا بأن الإستسقاء هو من سنن الأنبياء عليهم السلام، من قوله: (وإذ استسقى موسى).

الثاني: علمنا بأن الأنبياء على ثقة من الله من جهة وصول ما به قوام البدن، إنما يسألون من الله ما هو من ذلك القبيل لقومهم، لأنهم أضعف يقيناً من أنبيائهم، من قوله: وإذ استسقى موسى لقومه، أيضاً حيث أسند الإستسقاء لهم.

الثالث: علمنا بأن القوم كانوا أحوج إلى الماء من جهة الشراب لا لنحو السقي، وإلا لأرسلت عليهم السماء بدل انفجار الحجر.

الرابع: علمنا بأن المشارب تختلف في كل شيء حساً ومعنى، من قوله: (قد علم كل أناس مشربهم).

الإشارة

ترى الإستسقاء عبارة عن طلب الغيث المعنوي، المعبر عنه بمطر القلوب، فهو أولى في الإلتجاء إلى الله من أجله لأن القلوب أحوج إلى الأسرار من الأجسام إلى نزول الأمطار وهذا عند أهل القلوب، وأما أهل الأجسام لا يعرفونه حتى يسألوه، ومن جهل شيئاً عداه إنما يسألون ما به قوام البدن لأنهم أبدان بلا قلوب، ولعلك تقول قد استسقى نبي الله موسى وغيره من الرسل عليهم صلوات الله وسلامه فأقول إنما الإستسقاء منهم لقومهم، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى: (وإذ استسقى موسى لقومه). وأما لو استسقى لنفسه فيما هو محتاج إليه من جهة قوام البدن لقال كما قال خليل الرحمن علمه بحالي يكفيني عن سؤالي. وأما ما يختص بالقلوب من جهة استمطار الفضل فهم أحوج إليه، ومن ذلك ما اعتادته القوم رضوان الله عليهم من الإنقطاع إلى الله، وانفرادهم عن

الْخَلْقِ، وَخَرْقِ الْعَوَائِدِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا تَأْلَفُهُ النُّفُوسُ، مُتَعَرِّضِينَ بِذَلِكَ لِنَفَحَاتِ اللَّهِ، قَاطِعِينَ النَّظَرَ عَمَّا يُهِمُّهُمْ مِنْ جِهَةِ قَوَامِ الْبَدَنِ جَرْيًا عَلَى خُطَّتِهِمْ مِنَ الثِّقَةِ بِالْمَضْمُونِ، وَالْعَمَلِ بِالْمَطْلُوبِ، وَيَحْذَرُونَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنَ الْعَكْسِ، قَالَ فِي الْحِكَمِ الْعَطَائِيَّةِ اجْتِهَادُكَ فِيمَا ضُمِنَ لَكَ وَتَقْصِيرُكَ فِيمَا طُلِبَ مِنْكَ دَلِيلٌ عَلَى انْطِمَاسِ الْبَصِيرَةِ مِنْكَ.

لِسَانُ الرُّوحِ

سَأَلْتُهُ عَنِ الْعَصَا الَّتِي كَانَتْ لِمُوسَى فَلِمَ تَحْمِلُ الْأَعْمَالَ، قَالَ: لِأَنَّهَا كَانَتْ فِي يَدِ آدَمَ، وَآدَمُ مَنْفُوخٌ فِيهِ مِنْ رُوحِ اللَّهِ.

التَّفْسِيرُ

قَوْلُهُ تَعَالَى: «**وَإِذْ قُلْتُمْ**»، أَيْ تَذَكَّرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ جِنَايَتَكُمْ وَسُوءَ اخْتِيَارِكُمْ لَمَّا قُلْتُمْ: «**يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ**» مَا عِشْنَا، وَهُوَ الْمَنُّ وَالسَّلْوَى، بَلْ نُرِيدُ تَلَوُّنَ الْأَطْعِمَةِ تَارَةً هَذَا وَتَارَةً هَذَا، وَلَيْسَ لَنَا مَا بِهِ التَّوَصُّلُ لِذَلِكَ «**فَادْعُ لَنَا**

رَبُّكَ يُخْرِجْ لَنَا» أَيْ لِأَجْلِنَا «مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا» أَيْ خُضَرِهَا، وَالْمُرَادُ مَا يُؤْكَلُ كَالْكُرَّاثِ وَالنَّعْنَاعِ وَنَحْوِهِمَا «وَقِثَّائِهَا» وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْخِيَارِ، «وَفُومِهَا» لُغَةٌ فِي الثُّومِ «وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا» هُمَا نَوْعَانِ مَعْرُوفَانِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُحْصَرُ كَثْرَةً، وَكَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ أَرْضُ التِّيهِ رَوْضَةً يَانِعَةً، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ غَيْرَ أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ بِهِ عَمَّا طُلِبَ مِنْهُمْ مِنَ التَّجْرِيدِ وَالْإِنْقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ بِمَا يَشْغَلُهُمْ مِنْ لَوَازِمِ الْفِلَاحَةِ، وَلِهَذَا «قَالَ» تَعَالَى لَهُمْ بِصِيغَةِ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ «أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ» أَيْ تَخْتَارُونَ مَا هُوَ الْخَسِيسَ مِنْ جِهَةِ تَعَاطِي الْأَسْبَابِ وَتَتْرُكُونَ الشَّرِيفَ الْأَعْلَى الْمُسَاقَ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ بِلَا وَاسِطَةٍ، وَلَمَّا لَمْ يَنْجَحْ فِيهِمُ الْوَعْظُ، وَلَمْ تَرْتَفِعْ هِمَّتُهُمْ عَنْ بُطُونِهِمْ قَالَ تَعَالَى: «اهْبِطُوا مِصْرًا» فَكَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ لَهُمْ إِنَّكُمْ لَسْتُمْ أَهْلًا لِرَفْعِ الْهِمَّةِ وَأَشْرَفِ الْمَنَازِلِ، وَحَيْثُ كُنْتُمْ كَذَلِكَ وَرَضِيتُمْ

بِمَا لَا قِيمَةَ لَهُ بِالنَّظَرِ لِمَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ، اخْدِرُوا مِنَ التِّيهِ الَّذِي هُوَ مَحَلُّ الِانْقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ وَادْخُلُوا أَحَدَ الْأَمْصَارِ «فَإِنَّ لَكُمْ» فِيهِ جَمِيعَ «مَا سَأَلْتُمْ» مَبْذُولٌ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ قَبِيلِ مَا تَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ الْهِمَمُ الْعَالِيَةُ «وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ» مُسْتَعَارٌ مِنْ ضَرْبِ الطِّينِ عَلَى الْحَائِطِ بِأَنِ الْتَصَقَتَا بِهِمْ، وَصَارَ مِنْ لَوَازِمِهِمْ. وَإِلَى الْآنَ تَجِدُ مِنْ بَقَائِهِمَا فِيهِمْ، وَحَتَّى لَوِ انْفَكَّتَا عَنِ الْبَعْضِ مِنْهُمْ ظَاهِرًا فَهُوَ يَعْلَمُهُمَا مِنْ نَفْسِهِ بَاطِنًا، وَهَذَا جَزَاءُ مَنْ يَجْعَلُ هِمَّتَهُ فِي بَطْنِهِ فَخَسِرُوا بِذَلِكَ خُسْرَانًا أَبَدِيًّا «وَبَاءُوا» أَيْ رَجَعُوا وَانْصَرَفُوا مِنَ التِّيهِ إِلَى مِصْرَ «بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ» عَلَيْهِمْ عَظِيمٍ «ذَلِكَ» الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَالْغَضَبُ حَقٌّ بِهِمْ «بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ» أَيْ يَجْحَدُونَهَا بَعْدَ ثُبُوتِهَا لَدَيْهِمْ «وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ» كَيَحْيَى وَزَكَرِيَّا وَشُعَيْبٍ وَغَيْرِهِمْ «بِغَيْرِ الْحَقِّ» قَيَّدَ فِي الْقَتْلِ، مَعَ أَنَّ قَتْلَ النَّبِيِّ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ بِحَقٍّ

وَفَائِدَتُهُ زِيَادَةٌ فِي إِيضَاحِ عُتُوِّهِمْ وَجُرْأَتِهِمْ عَلَى اللَّهِ فَكَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حُجَّةٍ يَعْتَمِدُونَهَا وَلَا تَأْوِيلٍ، وَإِنْ كَانَ بَعِيدًا، إِنَّمَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ مَيْلًا لِجَانِبِ الدُّنْيَا، وَغُلُوًّا فِي الْعِصْيَانِ كَمَا يُفْصِحُ عَنْهُ قَوْلُهُ: «**ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ**» فَكَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ بَلَغُوا إِلَى مَا بَلَغُوا إِلَيْهِ مِنْ قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ، وَالْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ بِسَبَبِ مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الذُّنُوبِ فَبِتَرَاكُمِ الذُّنُوبِ تَنْطَمِسُ الْبَصَائِرُ وَالْقُلُوبُ.

الِاسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى) إِلَى قَوْلِهِ: (يَعْتَدُونَ) ثَمَانِيَةُ أَحْكَامٍ:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُتَجَرِّدَ حَقُّهُ أَنْ لَا يَتَشَوَّقَ لِمَا زَادَ عَلَى الطَّعَامِ الْوَاحِدِ، لِذَمِّهِ تَعَالَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ.

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ شِدَّةَ الْحِرْصِ لِأَجْلِ تَنْوِيعِ الْأَطْعِمَةِ مَظِنَّةُ السُّقُوطِ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ حَسْبَمَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْقِصَّةِ.

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الطَّعَامَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الإِسْرَائِيلِيُّونَ فِي حَالِ التِّيهِ هُوَ أَرْفَعُ مِمَّا طَلَبُوهُ مِنْ تَنْوِيعِ الْخُضَرِ، مِنْ قَوْلِهِ: (أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ).

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمَدِينَةَ الَّتِي أُمِرُوا بِالْهُبُوطِ إِلَيْهَا هِيَ مَحَلٌّ يُوجَدُ فِيهِ جَمِيعُ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ رَفَاهِيَةِ الْعَيْشِ مِنْ قَوْلِهِ: (اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ).

الْخَامِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ أَصْحَابَ التِّيهِ كَانَ أَكْثَرُهُمْ فِي الْحَضَرِيَّةِ أَمْكَنَ، وَإِلَّا لَمَا تَشَوَّقُوا إِلَى الْقِثَّاءِ وَالثُّومِ وَالْعَدَسِ، وَمَا هُوَ مِنْ ذَلِكَ الْقَبِيلِ.

السَّادِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُتَجَرِّدَ إِلَى اللَّهِ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ تُضْرَبَ عَلَيْهِ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ، مِنْ قَوْلِهِ: (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ) بَعْدَ دُخُولِهِمْ لِمِصْرَ، وَاشْتِغَالِهِمْ بِلَوَازِمِ الْمَعَايِشِ.

السَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الذُّلَّ وَالْمَسْكَنَةَ وَقْفَانِ عَلَى الْيَهُودِ مِنْ بَعْدِ مُوسَى، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، مِنْ قَوْلِهِ: (وَضُرِبَتْ

عَلَيْهِم ..) .

الثَّامِنُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الإِسْتِرْسَالَ فِي الْمَعَاصِي قَدْ يَكُونُ سَبَبًا فِي الْكُفْرِ وَنَحْوِهِ، مِنْ قَوْلِهِ: (ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) أَيْ كُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ كَانَ بِسَبَبِ اسْتِرْسَالِهِمْ فِي الْمَعَاصِي .

الإِشَارَةُ

تُفِيدُ مَا مِنْ ذُلَّةٍ تَرَتَّبَتْ، وَمِحْنَةٍ تَحَتَّمَتْ إِلَّا وَأَصْلُهَا الشَّرُّ وَتَحَكُّمُ الشَّهْوَةِ الْبَاطِنِيَّةِ . وَتُفِيدُ أَيْضًا أَنَّ الْعِزَّ كُلَّ الْعِزِّ فِي رَفْعِ الْهِمَّةِ وَتَهْذِيبِ الطَّبْعِ، وَتَرْوِيضِ النَّفْسِ عَلَى الطَّعَامِ الْوَاحِدِ، بَعْدَمَا جَهَدَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كُلَّ الْمُجَاهَدَةِ فِي رِيَاضَتِهِمْ عَلَيْهِ بِمَا تَحَكَّمَ فِيهِمْ مِنَ الطَّبْعِ . وَلِهَذَا كَانَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْهَى عَنِ الْجَمْعِ بَيْنَ إِدَامَيْنِ عَلَى مَائِدَةٍ، أَوْ فِي آنِيَةٍ، احْتِيَاطًا مِنْ تَحَكُّمِ الطَّبْعِ، كَمَا تَحَكَّمَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَاحْذَرُوا بِسَبَبِهِ مُوَافَقَةَ لِسُلْطَانِهِ إِلَى مِصْرَ مَحَلِّ تَعَاطِي الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِتَلَوُّنِ الْأَطْعِمَةِ

وَاسْتَصْغَرُوا جَانِبَ الذُّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ فِي مُقَابَلَتِهَا. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (مَنْ جَعَلَ هِمَّتَهُ فِي بَطْنِهِ فَقِيمَتُهُ عِنْدَ اللَّهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَهِيَ فِي الْخِسَّةِ بِمَكَانٍ، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا تَعَيَّنَ عِنْدَ الْقَوْمِ تَهْذِيبُ الْأَخْلَاقِ وَتَرْوِيضُ الطِّبَاعِ، لِأَنَّهُمْ وَجَدُوا الْعِزَّ كُلَّ الْعِزِّ فِي رَفْعِ الْهِمَّةِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الطَّعَامِ الْوَاحِدِ، وَالذُّلَّ كُلَّ الذُّلِّ فِي التَّشَوُّقِ لِمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ، لِأَنَّ مَنَالَهُ تَحْتَ يَدِ الْخَلْقِ غَالِبًا. قَالَ فِي الْحِكَمِ الْعَطَائِيَّةِ إِرَادَتُكَ الْأَسْبَابَ مَعَ إِقَامَةِ اللَّهِ إِيَّاكَ فِي التَّجْرِيدِ انْحِطَاطٌ عَنِ الْهِمَّةِ الْعَلِيَّةِ.

لِسَانُ الرُّوحِ

لَا يَعْتَبِرُ مِنَ الطَّعَامِ الْوَاحِدِ إِلَّا مَا صَرَفَ إِلَى الْحَقَائِقِ، الَّذِي هُوَ غِذَاءُ الرُّوحِ الْمُقَدَّسِ، فَمَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَيْهِ بَعْدَ تَحْصِيلِهِ فِي حَالِ خُرُوجِهِ عَنِ التَّقْيِيدِ وَمَا هُوَ مِنْ لَوَازِمِ الْعَبِيدِ حَتْمًا يَرْجِعُ بِغَضَبٍ إِلَى دَرَكَةِ التَّكْلِيفِ بِمَا فِيهَا مِنَ الذُّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ، وَقَالَ أَيْضًا إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَصْبِرُوا عَلَى الطَّعَامِ الْوَاحِدِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا

أَرْضِيِّينَ، وَالطَّعَامُ الْوَاحِدُ سَمَاوِيٌّ، بِخِلَافِ أَصْحَابِ عِيسَى فَإِنَّهُمْ سَمَاوِيُّونَ، وَلِهَذَا قَالَ نَبِيُّهُمْ: اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ.

التَّفْسِيرُ

إِنَّ كُلَّ مَنْ تَأَمَّلَ الْقُرْآنَ، وَتَمَعَّنَ فِي نِظَامِهِ وَحُسْنِ أُسْلُوبِهِ يَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ مِنْ نَفْسِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ تَعَالَى لَمَّا قَرَعَ سَمْعَ الإِسْرَائِيلِيِّينَ أَنَّهُمْ بَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، وَذَكَّرَهُمْ بِكُلِّ بَغْيٍ وَفَسَادٍ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الْعَدْلُ ظَهَرَتْ مِنْهُ تَعَالَى صِفَةُ الرَّحْمَةِ الَّتِي هِيَ أَسْبَقُ مِنَ الْغَضَبِ، فَأَخَذَتِ الْيَهُودَ مِنْ سَوْءِ الْحَضِيضِ وَرَفَعَتْهُمْ إِلَى أَنْ جَمَعَتْهُمْ مَعَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْخِطَابِ ثُمَّ عَمَّتْ غَيْرَهُمْ مِنَ الْفِرَقِ، وَلَا أَبْلَغُ مِنْ هَذَا فِي الِاسْتِعْطَافِ. قَالَ تَعَالَى: «**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**» بِمَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ «**وَالَّذِينَ هَادُوا**» أَيْ دَخَلُوا فِي الْيَهُودِيَّةِ، مَأْخُوذَةٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: إِنَّا هُدْنَا